فشلهم حاولوا إنشاء دولة في الجنوب تضم مستعمرة عدن وبعض المحميات الغربية، ثم طوروا الفكرة إلى إنشاء (الاتحاد الفيدرالي للجنوب العربي) كنواة لتلك الدولة التي يعتزمون إنشاءها.

وعلى ضوء تلك الظروف، وما حضيت به الحركة الوطنية من خبرات وتجارب –خاصة– في الخمسينات خلال أنشطتها الرامية إسقاطها النظام الإمامي من جهة أو من خلال تأثرها بالحركات العربية الأخرى، أخذت فكرة الكفاح المسلح تتسلل إلى التنظيمات السياسية اليمنية بعد أن أدركت عدم جدوى الحوار أو النضال السلمي، وكانت حركة القوميين العرب من أوائل المتبنين لخيار الكفاح المسلح، إلا أن العقبة الوحيدة التي كانت تقف أمام الوطنيين هو افتقارهم للقاعدة المساندة، أو ما يطلق عليه في الحروب الكبيرة (العمق الاستراتيجي للمعركة).

لكن مع انتصار ثورة السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢م في القضاء على النظام الكهنوتي الرجعي وإقامة نظام جمهوري، فإن انفراجا كبيراً في قضية النضال التحرري من الاستعمار البريطاني قد فتح آفاقه للوطنيين فمن جهة أدركت القوى الوطنية أهمية العمل المسلح في التغيير والتحرر من خلال ما أثبتته تجربة تنظيم الضباط الأحرار بثورتهم السبتمبرية، ومن جهة أخرى أصبحت ساحة الشطر الشمالي ليست مهيأة وآمنة لتحركاتهم فقط، بل ومصدر الدعم والمؤازرة وجبهة المواجهة الحقيقية مع المستعمر، خاصة وأن الدفاع عن الجمهورية كان عملاً انصهرت فيه الآلاف من أبناء الجنوب للانخراط في صفوف الحرس الوطني بوازع ذاتي مستند إلى خلفية الانتماء الواحد لأبناء الشعب اليمني.

الإنجليز بين (نت كراكر) و (دنكن ساندز)

وهكذا تطور حوار التنظيمات السياسية إلى عقد لقاء صنعاء في مايو ١٩٦٣م الذي اجتمعت له العديد من القوى على رأسها حركة القوميين العرب، وقاد الحوار إلى تشكيل الجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل، على أساس تبني خيار الكفاح المسلح لطرد المستعمر، وتزامن ذلك مع احتدام صدامات بين القبائل والقوات البريطانية في ردفان، فكان أن احتشدت الجهود صوب هذه الجبهة لتبرز وجودها الوطني في الساحة ولتشعل فجر شرارة الانتفاضة المسلحة في ردفان التي انطلقت من أرضيتها ثورة الرابع عشر من أكتوبر ١٩٦٣م.

إن تصاعد حركة الكفاح المسلح ونجاح ثورة ١٤ أكتوبر دفعت بالإنجليز إلى قيادة خمس حملات عسكرية تاريخية لاحتواء الوضع المنهار.. فكانت حملتهم الأولى أطلقوا عليها اسم (نت كراكر) بمعنى (كسارة جوز الهند) واستغرقت خلال الفترة (٤–٣١) يناير ١٩٦٤م اشتركت فيها طائرات (هنتر) و (شاكيلتون)، و (بليفيدر) و (ويسكس) وبمجرد أن بدأت إنزالها على الجبال المحيطة بوادي (ربوة) حتى تم التصدي لها بقوة واضطروها للتراجع عن الخطة كاملة.

ثم أعقبوها بالحملة الثانية باسم (رستم) للفترة (١ فبراير–١٣ أبريل ١٩٦٤م) وكان هدفها الوصول إلى وادي (تيم) لكنها فشلت وتم قتل خمسة جنود بريطانيين مع قائد سريتهم. فكان رد الفعل البريطاني هو إرسال ٨ طائرات هنتر لضرب (حريب) وهدم المنازل وقتل المدنيين مما صعد الأمر من روح المقاومة والكفاح.

وجاءت الحملة الثالثة للفترة (١٤ أبريل– ١١ مايو ١٩٦٤م) بقيادة (جون كابون) القائد العام للقوات البرية في الشرق الأوسط، وأطلقوا عليها (رد فورس) بقوة لواء كامل، وكان هدفها وادي (تيم) ووادي (دنبه)، لكنها قوبلت بمقاومة شديدة أفشلت الحملة واضطر قائدها إلى إلغاء إنزال الكوماندوس.. ولهذا أعقبوها بحملة رابعة (١١–٢٣ مايو ١٩٦٤م) بقيادة (بلاكر) وهدفها جبال (البكري) وفشلت أيضاً في بلوغ أهدافها.

وفي الفترة (٢٤ مايو –٢٣ أغسطس ١٩٦٤م) انطلقت الحملة الخامسة، وكان هدفها جبل (الحورية) واشترك فيها المظليون ودعم جوي كثيف، وكانت بقيادة (بلير) ثم خلفه (بلاكر) لكن مصيرها لم يختلف عن سابقاتها وأسقط الثوار طائرة هيلكوبتر من طراز (آر. أن. ويسكس) وفي موقع آخر تم إعطاب طائرتين من ضمن ثلاثة مخصصة لعملية استيلاء على جبل (ودنا).

وأمام هذه المقاومة الصلبة في ردفان بدا الانهيار والإحباط واضحاً عند البريطانيين مما استدعى الأمر مجيء (دنكن ساندز) وزير الدفاع البريطاني في أوج الطقس الحار إلى جبال ردفان على أمل أن يساعد وجوده في رفع معنويات القوات المحتلة، لكن كان كل شيء يجري على العكس تماماً.

الموت القادم من الريف

في الوقت الذي كانت قوات الاحتلال تكرس حملاتها على ردفان كانت جبهة الضالع قد بدأت هي أيضاً في كفاحها منذ ٢٤ فبراير ١٩٦٤م بالهجوم على دوريات السرية (٥) من الكتيبة الثانية، ثم تلتها عمليات زرع الألغام في طرق سيارات الجيش التي كانت كثيراً ما تقع في كمائن الثوار.. كما امتد النشاط إلى القيام بعمليات نوعية كإطلاق النيران بكثافة على منزل الضابط السياسي في الضالع، وكذلك ضرب معسكرات الجيش الاتحادي بالرشاشات والبوازيك وقتل عدد من أفراده وتدمير بعض المعدات والثكنات.

وفي عام ١٩٦٥م بلغ عدد القتلى الإنجليز في هذا العام بالضالع فقط (٢٤) جنديا وضابطا وإصابة ما يزيد عن (١١٣) منهم، واصبح إلقاء القنابل على جنود الاحتلال مشهدا مألوفا لا تكاد منطقة يمنية لا تعرفه، وكذلك الحال في زرع الألغام وانفجار العربات البريطانية المختلفة بحيث أن الإنجليز من شدة وضراوة المقاومة التي واجهوها اضطروا في ١٩٦٦/٨/٢٢م إلى إصدار أمر بإغلاق الحدود بين الشمال والجنوب.

ولم تكن مقاومة الريف مقتصرة على الضالع وحدها، بل إنها كانت تشمل جميع مناطق الجنوب بما فيها حضرموت ويافع وحريب والشعيب وبلاد العواذل ودثينة ولحج وغيرها.. ونتيجة لهذا الامتداد لحركة الكفاح المسلح أخذت قوات الاحتلال بإنشاء الوحدات الخاصة للتدخل السريع، كذلك قوة للألغام وغيرها. إلا أن كل ذلك لم يوقف من تصعيد المقاومة لعملياتها، وتطوير أساليبها في المواجهة، بحيث أصبحت تستهدف كبار القادة العسكريين ومراكز القيادة العسكرية الحيوية،و المركبات الخاصة بالضباط، كذلك أماكن هبوط الطائرات ومنازل قادة الجيش، وفي

المئات، بل الآلاف من قوات الاحتلال، وكان كلما مضى زمن كلما كانت رائحة الموت القادم من الريف اليمني أشد غزارة، وأقوى بأساً على إرجاف فرائص الغزاة، وتحويل أعمارهم إلى محض زمن لترقب الموت على أرض غريبة، لا تجد حتى الصلاة الكنائسية قبل إيداع الجثمان بين ثراها..

الكفاح حتى الاستقلال

عدن لم تستكن يوما في جوف ليل غاصب، تسمع فيه وقع أقدام

المستعمر وهو يجوس الديار فيبطش بهذا ويجور على ذاك ويصاد حرية آخرين.. فقد ظلت عدن ثائرة تناضل لاسترداد حقها من الكرامة من يوم أن اغتصبها الأجنبي. وإذا ما سكنت يوما فليس أكثر من أن تلعق جراحاتها، وتعيد رص صفوف أبنائها وتتأمل فيما ستقوم به غداً لكسر شوكة الاحتلال وتطهير الأرض من دنسه.

فعندما أقام الإنجليز (الاتحاد الفيدرالي للجنوب العربي) كان المغزى مفهوما لأبناء عدن وجاء رأيهم فيه يوم ١٠ ديسمبر ١٩٦٣م بأن ألقوا بقنبلة في المطار أودت بحياة (جورج هندرسن) مساعد المندوب السامي البريطاني، وجرح إلى جانبه (٥٣) من كبار الموظفين الإنجليز والوزراء الاتحاديين بما فيهم المندوب السامي البريطاني نفسه السير (كنيدي ترافيسكس). ومن يومها دخل الكفاح المسلح في عدن طوراً جديداً ومنظما وخطا خطواته التنفيذية العملية بدءاً من ٦ نوفمبر ١٩٦٤م بزيارة (انتوني جرينود) ووزير المستعمرات الجديد والذي أزاح المندوب السامي في عدن (كنيدي ترافيسكس) من منصبه، ثم صار يحاول إقناع الوطنيين بالاشتراك في حكومة الاتحاد بعد أن كان يقطع الوعود على نفسه قبل الفوز في الانتخابات بأنه سيعدل من السياسة البريطانية بعدن.

ومنذ تلك الزيارة ارتفعت وتيرة المقاومة، وفي ١٩٦٤/١٢/٢٤م قتلت ابنة قائد سلاح الطيران للشرق الأوسط بقنبلة رماها أحد المقاومين إلى منزل ضابط في (خور مكسر) وفي عيد رأس السنة الميلادية ثم قتل أول ضابط يمني يعمل بالمخابرات البريطانية هو (فضل خليل) بالرشاش وسط سوق مزدحم في (كريتر) وبلغت حصيلة شهري نوفمبر وديسمبر من العام ١٩٦٤م في عدن بـ(٣٦) بين قتيل وجريح. ما في العام ١٩٦٥م فقد ارتفعت الإصابات إلى (٢٣٧) بين قتيل وجريح ناجمة عن (٢٨٦) عملية قامت بها المقاومة.

وركز رجال المقاومة في البداية على اغتيال رجال المخابرات البريطانية بالذات. فمن أصل (٢٢) حادثة اغتيال تمت بنجاح في عام ١٩٦٥م كانت (١٠) منها موجهة ضد ضباط مخابرات و إحداها في (الشيخ عثمان) تركت فوق جثة المقتول ملاحظة تقول: هذا العميل نفذت فيه الحكم الجبهة القومية. وعلى إثر ازدياد نشاط المقاومة لجأت الحكومة البريطانية في يونيو ١٩٦٥م إلى إصدار قانون الطوارئ وحظرت بموجبه نشاط الجبهة القومية واعتبرتها حركة إرهابية.

وفي ٢٩ أغسطس ١٩٦٥م قامت الجبهة باغتيال ضابط المخابرات البريطاني (هادي باري) وهو يمر بسيارته ذاهباً إلى عمله صباحا ثم تبعه بأيام اغتيال (آرثر شارلس) رئيس المجلس التشريعي، فتسبب ذلك بهزة عنيفة للإنجليز فرضوا على أثرها منع التجول في (كريتر). وهو الأمر الذي لم يردع المقاومة بل دفع الحركة العمالية والمؤسسات الوطنية الأخرى إلى إعلان الإضراب العام في ٢ أكتوبر ١٩٦٥م فرد الإنجليز على هذا بأمر الجيش النظامي بقمع المظاهرات، وتم اعتقال (٧٦٠) شخصاً وتم زج عدد من زعماء الحركة العمالية بالسجون وإغلاق صحيفتين.. كما أنشأ الإنجليز لواء خاص بعدن يسمى بلواء (أيدن بريجيد) وتم تقسيم عدن إلى أربع مناطق أمنية إضافة إلى إجراءات أخرى كثيرة تستهدف الحد من نشاط المقاومة.

وفي ٢٢ فبراير ١٩٦٦م اضطرت بريطانيا إلى أن تعلن في ورقة الدفاع البيضاء بأنها (ستسحب قواتها من قاعدة عدن عام ١٩٦٨م) لكن ذلك زاد من نشاط الثوار وتكثفت العمليات العسكرية خاصة بعد أن ثبت لهم أن نية بريطانيا كانت في إعطاء الاستقلال في عام ١٩٦٨م لحكومة الاتحاد بعد أن تقوم بدعمها بالأسلحة التي تستهدف قوات الاحتلال إلى ستة أضعاف عما كانت عليه في العام السابق، إذ بلغت في عام ١٩٦٧م حتى شهر أكتوبر منه فقط (٢٩٠٨) حادثة تسببت في (١٢٤٨) إصابة بين قتيل وجريح بحسب وثائق قوات الاحتلال نفسها.

ولأول مرة في هذه السنة تستخدم الأسلحة الصغيرة بكثرة إلى جانب القنابل كذلك زادت المظاهرات والتجمعات وانضمت إليها المرأة على نحو ملحوظ وبارز، وأصبحت الإضرابات العامة الطويلة من مميزات هذا العام أيضاً.

وعلى أثرها زاد ارتباك الإنجليز، وأقدموا على تجريد البوليس المدني من صلاحياته في حفظ الأمن ليجعلوها بيد القوات البريطانية، وأعلن منع التجول بعد قيام الجبهة القومية بتنظيم إضراب عام في ١٩ يناير (يوم الاحتلال البريطاني لعدن) وتساقط عدد من الشهداء من جراء الالتحام مع القوات البريطانية وفي ٢٨ فبراير قام أحد الفدائيين بتفجير لغما في منزل الضابط السياسي (انتوني انجليدو) في شكل لعبة أثناء حفلة عشاء تم فيها قتل امرأتين وجرح (١١) آخرين، وبعد أسبوع حدثت عملية مماثلة.

وأمام عجز قوات الاحتلال في الوقوف بوجه العمليات الفدائية والمظاهرات والإضرابات والألغام وغيرها، اضطرت لعمل مراكز مراقبة فوق قمم ومنحدرات جبل (شمسان) ذات نواظير وأجهزة لا سلكي لتحذر من خلالها قواتها.. ولكن دون جدوى.

وعندما جاءت بعثة الأمم المتحدة في ٣ أبريل ١٩٦٧م صعد الثوار كفاحهم المسلح وبقيت البعثة حبيسة فندق (سيفيو) لتغادر بعد خمسة أيام غاضبة، ورافق ذلك إضراب عام أيضاً. وكانت البعثة قد زارت سجن المنصورة في اليوم الثالث لها فقابلها المعتقلون بالتظاهر والهتاف بحياة الثورة وسقوط الاستعمار. وفي ذلك الأسبوع وحده بلغت الحوادث (٢٨٠) حادثة تسببت في إصابة (٦٤) بين قتيل وجريح وشهد شهر أبريل موجة صاخبة من الاغتيالات والتفجيرات.

وفي الأول من مايو ١٩٦٧م بدأت السلطات البريطانية بتسفير عوائلها من عدن بحيث يقدر عدد الذين غادروا خلال أسبوعين (٨٠٠٠) شخص، وأقدمت بريطانيا على استبدال مندوبها السامي (ريتشارد ترنبول) باللورد (همفري تريفليان). ونتيجة لأحداث نكسة الخامس من حزيران ١٩٦٧م اشتدت المقاومة وأجبرت الإنجليز على نقل الكتيبة البريطانية من مقر قيادتها الرئيسية في (خور مكسر) إلى مستشفى (عفارة) في الشيخ عثمان.

وفي ١٩ يونيو أعلن وزير خارجية بريطانيا عن سياسة حكومته القاضية بتحديد تاريخ الاستقلال ووعد بتقوية الجيش الاتحادي ودعمه جوياً بعد الاستقلال من حاملات طائرات بريطانية.. وهذا الإعلان أدى إلى انفجار الوضع في اليوم التالي في انتفاضة عارمة انطلقت من (معسكر ليك)، و(مدينة الاتحاد)، و (معسكر شامبيون) و (معسكر البوليس المسلح) هاجم فيها الثوار المعسكرات وأطلقوا السجناء وأحرقوا المكاتب الاتحادية واحتلوا مبنى السكرتارية العامة ونهبوا الأسلحة والذخائر من معسكر النصر وتمركزوا فوق البنايات، كما أطلقوا النيران على التجمعات البريطانية، وتحول يوم ٢٠ يونيو ١٩٦٧م إلى يوم مشؤوم في تاريخ الجيش البريطاني، إذ خسر فيه (٢٣) قتيلاً و (٣١) جريحاً.

خلال الأسبوعين اللاحقين بقيت (كريتر) بأيدي الثوار، لكنهم ما لبثوا الانسحاب منها بعد حصار قوات الاحتلال للمدينة، واستأنفت الهجمات بكثافة خلال الفترة يوليو– سبتمبر ١٩٦٧م في (الشيخ عثمان) والمنصورة وتعرض الإنجليز لأكثرمن (٨٠) حادثة ولاذوا يحمون أنفسهم داخل الثكنات.

وفي ٢٣ أغسطس ١٩٦٧م وجهت الجبهة القومية (٨) قنابل (مورتر ٨ مم) إلى دار المندوب السامي البريطاني في منطقة (حصينة وعسكرية). وفي ٢٨ سبتمبر وقف هجوم عنيف بالمورتر ضد ثكنات (كانت) في (التواهي). لكن بعد سبتمبر توقفت هجمات الثوار في (عدن الصغرى) و (الشعب) و (الشيخ عثمان) بعد أن اضطرت قوات الاحتلال الانسحاب منها نهائياً وتسليمها لقوات جيش الاتحاد. وكانت القوات البريطانية قد أكملت انسحابها من الأرياف في يوليو تقريباً، ومن (عدن الصغرى) في ١٣ سبتمبر، و (الشيخ عثمان) في ٢٤ سبتمبر، وتجمعت في خنادق جديدة في (المملاح) التي بقيت فيها حتى تاريخ الانسحاب النهائي في نوفمبر ١٩٦٧م.

ويجدر بالذكر أن الفترة الواقعية بين ٦–١١ سبتمبر كانت قد شهدت انفجار الاقتتال بين جبهة التحرير والجبهة القومية، ثم انفجر القتال ثانية في ٣–٦ نوفمبر ١٩٦٧م وكان هذه المرة حاسماً لصالح الجبهة القومية حيث أعلنت القوات المسلحة وقوفها إلى جانبها بصفتها ممثلة وحيدة للشعب.

لقد مثل للانسحاب البريطاني من عدن وبقية المدن اليمنية صفحة سوداء في تاريخ القوات الاستعمارية لم يمنح أي منهم فرصة تأدية التحية ومصافحة الأيادي كما جرت العادة عند تسليم الاستقلال، فقد خرجت بريطانيا مكرهة تجر أذيال خيبتها أمام شعب فقير الإمكانيات، عزلته ظروف الاحتلال والنظم الرجعية عن امتلاك أبسط حقوق العيش الكريم.. لكن الشيء الوحيد الذي لم يقو أحد على سلبه إياه كان إرادته وعزيمته وتشبثه بإنسانيته وحقه في الحياة الحرة الكريمة.. وربما كان ذلك هو الجانب الوحيد الذي تفوق فيه اليمنيون على قوات الاحتلال القادمة من أقصى بقاع الأرض لتتطفل على حياة ومقدرات الشعوب الفقيرة.. ولهذا السبب فقط انتصر اليمنيون، وأعلنوا استقلال بلادهم في ٣٠ نوفمبر ١٩٦٧م، ولم يقفوا عند هذا الإنجاز، بل أعادوا وحدتم اليمنية في ٢٢ مايو ١٩٩٠م، وباتوا اليوم مثلاً يحتذى به في الوحدة والديمقراطية والنهوض وصناعة السلام.